كلمة أ.د. طه جابر العلواني

في ندوة الاتجاهات الحديثة في دراسة القرآن الكريم

بيروت 11- 12/ فبراير/ 2006م.

أشكر الإخوة في المعهد والملتقى الفكري للإبداع على إتاحة هذه الفرصة للإلتقاء بوجوه طيبة؛ منذ فترة طويلة ونحن في شوق للّقاء بها، والتحاور معها في أهم شؤوننا وقمة مصادر تكوين أمتنا وهدايتها ألا وهو القرآن الكريم.

هذا الملتقى قدمت إليه حوالي عشرين ورقة جلها قد قارب القراءآت الحديثة للقرآن الكريم أو لتفاسيره وعلومه. والقراءة منذ عصر التنزيل أخذت أشكالاً عديدة.

الشكل الأول: القرائتان اللتان جاء التنزيل بهما، حيث كانت الكلمات الأولى للوحي عند اتصاله برسول الله ﷺ وبالأرض الأمر بقرائتين: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ*خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (**العلق: 1–5**) هذه الآيات الخمس ألأولى التي نزلت في بداية نزول القرآن الكريم حملت أمرًا بقراءتين، كل قراءة تستمد خصائصها من الله- سبحانه وتعالى- الذي أشير إليه بالاسم والخلق بالنسبة للإنسان المتلقي لهذا القول الثقيل. بدأ خلقه من العلق، أي نقطة من الدم المتخثر ثم تطورت. اسم ربك، ووصف بأنّه "الذي خلق"، وبيَّن الخلق في الفعل الذي هو صلة الموصول "بخلق الإنسان من علق"، فكأنه بدأ بأهم خلقه وأكرمهم عنده -مشيرًا جل شأنه إلى أصل خلقه من "علق" لا يمكن لأحد غيره أن يخلق منه بشرًا سويًا. وهذا الذي فعل ذلك- سبحانه- قادر على أن يجعل الأميّ قارئًا، وأن يختاره نبيًا ورسولاً. ويأتي الأمر بالقراءة الثانية لتزرع الثقة واليقين في قلب رسول الله بقدرة الرب الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. على إقرائه وتعليمه وجعله نبيًا ورسولاً. وبتدبّر القراءتين تدرك أن هناك تنبيهًا بأنّ الوحي سيصبح كتابًا كاملاً، مصدقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه، مشتملاً على تراث الأنبياء كلهم.

والقراءة الثانية ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ صلة الموصول، تربط بين قراءة القرآن الكريم والقلم وجميع القراءآت التي تراتبت وتراكمت بواسطته منذ بداية الخلق حتى عصر التنزيل، مما يشير إلى دعوة القرآن منذ البداية للجمع بين القراءتين لتحقيق أهداف التنزيل. ثم تتالت وتتابعت أنواع القراءآت بعد ذلك.

الشكل الثاني: هناك من يقرأ القرآن تعبّدًا، وفي ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ: "حدثنا جعفر بن عون: ثنا إبراهيم هو الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد. فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول "الم" ولكن بألف، ولام، وميم"[1].

الشكل الثالث: هناك من يقرأ القرآن لاستنباط أحكام، فهي قراءة تتسم بالبحث عن الشريعة والآيات التي تحمل تشريعات إلهية من أمر ونهي ووصية وما إلى ذلك، وقد نحى بعض العلماء إلى حصر آيات الأحكام، فحددها بعضهم بمائة وأربعين آية وجعلها بعضهم ثلاثمائة وبعضهم أوصلها إلى خمسمائة آية[2].

الشكل الرابع: هناك قراءة لمعرفة تاريخ البشرية وتطورها منذ بدء الخليقة حتى عصر الرسول. لمعرفة التاريخ واستنباط دروسه وعبره عبر القراءة في القرآن الكريم. وفي القرآن المجيد فلسفة للتاريخ ومنهج لدراسته تقابل وتعارض الفلسفة الوضعيّة والمنهج الوضعيّ لدراسة التاريخ. يتجلى في فلسفة القرآن المجيد للتاريخ بعد "فعل المغيب" في الواقع وفي الحدث التاريخيّ.

الشكل الخامس: هناك قراءة لاستجلاء البلاغة، ومعرفة نواحي الإعجاز البلاغيّ في النظم والأسلوب وغيرها.

الشكل السادس: هناك قراءة لمعرفة مقاصد القرآن الكريم العليا الحاكمة، وهي التوحيد والتزكية والعمران إضافة إلى المقاصد المتفرعة عنها.

---

[1] تخريج الحديث

[2]

وقد تعددت القراءآت في هذا المجال المقاصدي ووصلت إلى رقم كبير لا يستهان به. وحاولت تلك القراءآت المتنوعة أن تلم بمحاور هذا الكتاب المعجز ومقاصده كيف لا وهو الكتاب، الذي فصَّله الله –سبحانه وتعالى– على علمه، ولا يمكن للإنسان النسبيّ أن يحيط به، ولكنّه يسدّد ويقارب، وينهل منه على قدر وعيه به. والقرآن يبرز معانيه ومقاصده عبر العصور ليستوعب قضاياها.

الشكل السابع: وهناك قراءة تحاول أن تطلع على قصص الأنبياء خاصَّة ومعرفة أقوالهم وأحوالهم ومضامين رسالاتهم، ومواطن الاتفاق والاختلاف بينها.

الشكل الثامن: هناك قراءة لمعرفة ما إذا كان هذا القرآن يستشرف آفاق المستقبل ويعطي مؤشرات له لتحديد مصير البشر ومآلهم ونهاية التاريخ.

وهذه القراءآت المتعددة هي التي تكون الفكر الإسلامي في بداياته بها وحولها. فالعرب كانوا أميّين، و"الأميُّون" كلمة لها معنيان: المعنى الأول: الذين لا يقرأون ولا يكتبون. وهذا المعنى ليس مرادًا هنا، لأنّ النبيّ بعث وهو من بني هاشم ذؤابة قبائل قريش الذين كانوا يمارسون التجارة. وذلك يستلزم أن يكون لديهم مهارة في الكتابة والحساب لإدارة تلك التجارة. ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التي تعرضت لوضع العرب قبل الإسلام، ووضع الجاهليّة في عصر التنزيل من بينها: "المفصل في أحوال العرب" لابن يعيش و"عصر النبي وبيئته" لمحمد عزت دروزة، و"بلوغ الأرب في أحوال العرب" للآلوسي وكتب التاريخ التي أرّخت لتلك الفترة وهناك مصادر عديدة أخرى.

المعنى الثاني لكلمة "أميين": الذين لم ينزل عليهم كتاب سماويٌّ من قبل ولم يأتهم رسول، فلم تتم صلة مّا بينهم وبين الوحي الإلهي في وقت منظور بحيث يبدو لذلك الوحي أثر في حياتهم. والعرب وإن كان هناك تاريخ لبعض الأنبياء في جزيرتهم مثل سيدنا هود وصالح عليهما السلام، ولكن بعدت بينهم الشقة وبين أولئك الأنبياء الذين جاؤا لقبائل معينة من زمن سحيق فسادت الجاهلية لديهم، وقد نسوا كل الرسالات وفصلت بينهم وبين العهد بالوحي قرون عديدة ومن هنا فقد تطلّعت نفوسهم إلى رسالة وسجل القرآن تطلُّعهم ذاك: ﴿**أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَا**

أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ (**الأنعام: 155– 157**) ونزل القرآن الكريم وأصبح التطلُّع واقعًا. وبالقرآن بدأت الأمة تتشكل وحوله تكونَّت، وبه بدأ فكرها ومعارفها، ولذلك بدأت معارفهم وعلومهم تنشأ بعد أن بدأ لوحي ينزل، وذلك ما جعل ابن عبد البر يقول: "العلم قال الله قال رسوله"[1]، فقبل القرآن لم يمارس العرب أيّ تجارب علمَّية، فالقرآن منشيء لمعارفهم ولتصوّراتهم ولتوجّهاتهم، وحوله تكون فكرهم الذي تحول إلى معارف وعلوم تميَّزت فيما بعد، منها "العلوم الإسلامية" أو "العلوم النقلية الشرعية".

القراءآت المعاصرة:

ما صار يعرف "بالقراءآت المعاصرة": أول ما نستطيع أن نلاحظه: أن هذه القراءآت قد أخذت منحى آخر غير المنحى الذي درج عليه السلف والمتقدمون؛ فالذي استقر —عندنا– في الماضي المقاربات البلاغية والتفسيرية بأنواعها المختلفة الآثاريّة والإشاريّة والعقليّة. وبعض مقاربات أخرى لا تبتعد كثيرًا عما ذكرنا حفل بها تراثنا الفكري منذ توقف الاجتهاد في المحيط السنيّ، أو إنتهاء عصر النصّ في المحيط الشيعيّ. كان الناس يقاربون القرآن باعتباره كتاب عبادة يتعبّدون بقرائّته في الصلاة وخارجها، وأما العناية به فقد اتجهت نحو الشكل أكثر من اتجاهها نحو المضمون، فقد كان هناك من يعني بخطه وتجويده، ورسمه، وشكله، بل وجلده وغلافه. حتى أصبح لدينا ما يقارب من مليون مخطوط ومطبوع يتناول الجوانب المختلفة المتعلقة بالقرآن المجيد، منها مؤلفات في تفسير آية أو سورة قصيرة، أو كلمة أو إعراب ...إلى غير ذلك.

ويبدو أن تلك العناية– على أهميَّتها– لم تستطع أن تضع القرآن بين أيدي المسلمين باعتباره كتاب استخلاف وعمران، أو كتابًا يقود أمَّة شاهدة على البشريَّة بعد غياب الشهود

---

1 أنظر جامع بيان العلم وفضله

(الأنبياء) وتكون مع الكتاب بديلاً عن تتابع الرسل والنبَّوات؛ لأنَّها ستحمل الهداية كلها على دعامتين: أمّة معطاءٍ تكونت بهذا الكتاب، وكتاب كريم معطاء كذلك يستطيع أن يكشف عبر العصور عن معانٍ تستجيب لأيّ احتياجات بشريَّة حضاريَّة عبر العصور.

ولم يستجلِ المفسرون كل الأدلة والمؤشِّرات الشواهد التي تجعل من القرآن كتاب عمران وشهود حضاريّ. فالقرآن يحمل القدرة على التجديد والتجدّد الذاتيّ، وعجزت الأمة عن الوصول لذلك، واشتغلت بالرسوم وغيرها ولم تصل إلى فحوى القرآن في دلائل العمران والشهود الحضاريّ.

وحين نطوي عصور القراءة -بعد ذلك- لنأتي إلى عصرنا هذا نلاحظ أننا، منذ أن بدأ احتكاكنا بالغرب صرنا نشعر بتحدٍّ جعلنا نشعر بحاجة إلى قراءة القرآن بطرائق أخرى غير الطرائق الموروثة، تجلعنا قادرين على أن نواجه بالقرآن مشكلات وتحديات عصورنا، فلقد أغرقنا الاستشراق بدراسات متنوعة تكاد تستقريء الدراسات ذات العلاقة بالقرآن الكريم وتقلبها رأسًا على عقب بنوع من الحفريات المعرفيَّة اتقنوا القيام بها، فقد درسوا تاريخه، ولغته، ونقاط قوة ونقاط ضعف كثيرة وضعوا أيديهم عليها، وأبرزا كل ما عثروا عليه من أقوال غثيثة، وتراث مريض، وبخاصَّة تراث السجال بين الفرق التي لم يتورع بعضها أن يزعم في بعض المقولات الشاذَّة: أنَّ القرآن ناقص، وأنه قد ضاع منه شيء، أو أكلت بعض سوره داجن، تلك المقولات الساقطة التي جعلت "منهجيَّة الرواية" الكثيرين يتداولونها ويعيدون إنتاجها في مباحث الناسخ والمنسوخ وتتداولها بعض الفرق في نواحٍ أخرى بقصد النيل من بعض الأصحاب. وقد أوجد ذلك التراث ثغرات كبيرة كانت وما تزال موضع دراسات وتداول دون أن تهتز ثقة المسلمين بسلامة القرآن وحفظه وعصمته من النقص والتحريف والتبديل وأنّه ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (**سورة فصلت: 42**).

ذلك النوع من المقولات الغثَّة كان ينبغي أن توجه إليها سهام النقد، وترفع مسائله منذ زمن طويل من التداول، وترفع قضاياه من كتب العلم، ولكن ما زال السنّة يقرءون في كتب "أصول الفقه" مباحث "الناسخ والمنسوخ" بكل ما تشتمل عليه من هذه المقولات الغثيثة والذين ألفوا كُتبًا جامعيَّة أعادوا كتابة تلك الإصابات الخطيرة والمواضع المريضة ولكن بلغات معاصرة،

فما زال طلبة الدراسات الإسلاميّة يدرسون الحديث المروي عن أم المؤمنين –وهو مكذوباً عليها ولا ريب–: حول سورة الأحزاب وأنّها كانت تساوي في عدد آياتها سورة البقرة، وسورة البقرة تجاوزت المائتين وثمانين آية[1]، فأين ذهب الباقي؟ وما زلنا نردد في دراسات "الناسخ والمنسوخ" –أيضًا–: أن عمر بن الخطاب كان يشير إلى موقع رجم الزاني والزانية في سورة الأحزاب ويتمنى لو استطاع إعادته إلى موضعه من السورة، لولا خوفه من قالة الناس!!ومثال على ذلك –أيضًا– ذلك الحديث ":أخبرنا أبو العباس أحمد بن هارون الفقيه، ثنا علي بن عبد العزيز، حجاج بن منهال، ثنا حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال:

كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة، و كان فيها الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتّة"

مستدرك الحاكم، باب كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه،.

إننا ما نزال ندرس هذا وندرسه لأبنائنا في جميع جامعات العالم الإسلامي، بل وننقله لمن دخل الإسلام حديثًا دون نظر في لوازم هذه الروايات وعواقبها. وعلى الطرف الآخر –أيضًا– يرى بعض إخواننا الشيعة أن ولاية الإمام عليّ كانت لها سورة خاصة في القرآن وأن هذه السورة أزيلت وقت سيدنا عثمان رضي الله عنهما أو أكلتها الداجن!!.

والشيء الذي يخفى على الكثير أن واقعة نص عمر حول الرجم وجدناه بلفظه في بعض أسفار التوراة!! وبعضهم يقول بقاعدة: "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ"، وكأنَّنا نحتاج إلى مرجعيّة يهوديّة أو نصرانيّة قبل الرجوع إلى المرجع الأعظم والأجل ألا وهو القرآن الكريم؟!!.

هذه الإصابات والأقوال المريضة ألقت على القرآن الكريم ركامًا هائلاً من شبهات الذين لا يؤمنون به، نبش عنها وأظهرها المستشرقون، ولم نستطع حتى يومنا هذا أن نراجع هذا التراث ونرفعه من التداول، بل ما زلنا نتقاتل حوله ونستحييه ونبعثه، وأحداث باكستان وأفغانستان وغيرهما من الدول التي يوجد بها شيعة وسنة شاهدة على هذا الإرث المريض والمصاب. فبعض كتب السنة بها تكفير للشيعة والعكس صحيح، وكنت آمل أن يكون أول إنجاز للثورة الإيرانية

1

تنقية التراث الشيعي مما فيه من تجاوزات. ويجب أن تكون تلك الخطوة على الطرف الآخر من جانب علماء السنة. هذه الأمراض وغيرها قد استغلها طاغية مثل صدام وحارب عليها إيران أكثر من ثماني سنوات لكنه لم يصمد في أم المعارك أو خالتها إلا سويعات قليلة.

ذلك التراث الذي منع نور القرآن الكريم عن الأمة، وأصبحت مشغولة بما هو حول القرآن لا بالقرآن الكريم نفسه مما خلّفها وأضعفها، وجعل الأمم تتكالب عليها كتكالب الأكلة إلى قصعتها.

وأعود إلى هدف هذا المؤتمر لأقول: إن استعراض أنواع القراءآت يطول. وكذلك استعراض خصائصها ومع ذلك فقد أحسن هذا المؤتمر حينما حاول ذلك ورصد الدراسات التي صدرت خلال العشر سنوات السابقة باستقراء ناقص، ونحن في أمس الحاجة إلى المزيد من الاستقراء الكامل دون الناقص لتقييم هذه القرءآت ووزنها.

وقبل أن يقول لقاؤكم هذا كلمته في "القراءآت الحديثة" أود أن أنبّه: أنّ هذه القراءآت قد تم إنتاجها وأمتنا في حالة هزيمة منكرة، وتراجع شديد. وقيمنا في حالة انزواء مع سيادة طاغية للفكر اللِّيبرالي، والاتجاهات الوضعيّة والعلمانيّة في القراءة وفي هذا ما يضطرنا أن ننبّه إلى أمر هام وهو أنَّ قراءة القرآن تتصل بالقارئ- أيضًا- فللقارئ دور كبير في تحديد نوعية القراءة التي يقرأها، فهي عمليّة ليست مجرَّدة، بل إنّ مما يحددّ نوعيَّة القراءة رؤية القاريء ودوافعه والبيئة التي يعيش فيها. كما أنّ للقراءة علاقة كبيرة بالزمان والمكان؛ ولذلك تعدّدت القراءآت والتفاسير في امتداد الزمان والمكان. ولعل ما كتبه ابن عربي من تأملات في الفتوحات المكية نموذج على ربط قرائته، وما اعتبره إنجازًا كبيرًا في هذا المجال بإقامته في مكة والفيوضات التي حدثت له فيها.

البعد الغيبي:

للبعد الغيبي تأثير كبير في القراءة -أيضًا- فقد يصادف القارئ نفحات ربانيَّة كما قال رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- "إن لربكم في دهركم لنفحات فتعرضوا لها...." فإذا صادف القارئ هذا اللُّطف الإلهي فلا شك أن قراءته تختلف من القراءآت الأخرى، ومنها الاستشراقية وقد يصل-بتوفيق من الله- بهذه القراءة إلى كثير من أهداف القرآن الكريم، ولإدراك

ذلك البعد الغيبيّ يمكن الاستئناس بدلالة الآية الكريمة التي وردت في سورة الواقعة "لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ" فكثير من المفسرين أشاروا إلى اللّمس الحسِّي، ولكنّ كلمة "المطهَّرون" هنا جاءت بصيغة اسم المفعول تنبيها إلى أن عملية التطهير تأتي من خارج الإنسان- أي: أن "المطَّهرين" هم الذين طهَّرهم الله وهيأ عقولهم للوصول إلى معاني القرآن الكريم بلوغ بعض حقائقها.

والقرآن الكريم نفسه شفاء للمؤمنين ﴿**وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا**﴾ فهذه الآية تدل على أن التأثير القرآنيّ يتنوّع بتنوع القارئ وما يتصف به وما يتعرض له من نفحات الله (تبارك وتعالى).

وهناك قراءآت سلبيَّة أخرى حذر منها رسول الله- صلى الله عليه وسلم -"**أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ** أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا"[1]. فالخلاف سيؤدي بنا إلى ليّ أعناق الآيات، وحملها على إعطاء المعاني التي يرغب كل جانب أن يجعلها شاهدة له، ويكون النص القرآنيّ بذلك مصدر استقواء واستعلاء على قارئ آخر. وبقراءة كهذه يصبح الخطاب القرآنيّ مجرد شواهد لآراء المتنازعين الذين اختلفوا وبذلك يخيل للقاريء أو السامع أن القرآن يضرب بعضه بعضًا دون الالتفات لوحدته البنائية.

القراءة السلبية الثانية: حينما يقرأ القاريء القرآن طلبًا لشاهد أو دليل لموقف اتخذه، أو طلبًا لدليل يعزز مذهبًا تبنَّاه، وهذا سيكون –أيضًا- محجوبًا عن أنوار القرآن ووسائل هدايته ومعانيه كذلك؛ لأنّه دخل إلى رحاب القرآن؛ بأحكام مسبقة وذلك من الأمور السلبيَّة التي تمنع القلب من إستجلاء القرآن بشكل سليم، وتحجب عنه أنواره، ويؤكد على ذلك قول الله – تعالى- في سورة الضحى "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" فالضال سوف يجد هدى الله فيه ولكن القارئ المحمَّل بأحكام مسبقة سيقرأ قراءة من يفرض على القرآن معاني قد يحتملها وقد لا يحتملها، وقد

[1] سنن الدارمي، باب فضائل القرآن

يشير إليها وقد لا يشير إليها؛ ولكنّ هذا النوع من القارئين يتعلق بأي وجه من وجوه الدلالة؛ لأنَّه يريد أن يجعل القرآن ناصرًا لما يراه.

ويجب على القارئ تحديد موقعه من الخطاب القرآنيّ هل جاء إلى القرآن طالب هداية أو تعبُّد أو معرفة حكم، أو سنن إلهية، أو سنن اجتماعيّة، أو تاريخ أقوام،أو انتصار لمذهب فذلك التحديد المسبق ضروريٌّ ليعلم القارئ موقعه من القرآن الكريم، وذلك التحديد يكون بمثابة "النيّة" في بقية الأعمال.

ومن الجوانب السلبية التي سقط فيها كثير من الكاتبين في "أصول الفقه" و"الفقه" وغيرهما وضع القرآن في موضع الشاهد وليس في موقع المنشيء وقد يلاحظ ذلك في أدلة لها موقعها- مثل:

حجية الإجماع:

فقد رووا في المناقب[1] أن الإمام الشافعي قد قال بحجية الإجماع، فاعترض عليه معترض ما دليلك من القرآن على حجية الإجماع؟، فطلب من المخالف إمهاله ثلاثة أيام، وقرأ القرآن ثلاث مرات حتى ظهر له دليل حجية الإجماع بقوله تعالى ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا**﴾ (**النساء: 115**)، ومثل ذلك ما قيل في حجية القياس التي استدلوا عليها بالآية التالية ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ (**الحشر: 2**)، قالوا: لما كان القياس عبورًا بحكم الأصل إلى حكم الفرع وقوله تعالى: "اعتبروا".أمر بالاعتبار، وهو من العبور، فذلك يعني أن القياس مأمور به. وكثير من الفقهاء فعلوا الشيء نفسه فكثير من المذاهب والمدارس الفقهيّة نسبت لأئمتها السنن والمسانيد بعد وفاة بعضهم لئلا يقال: أن

---

[1] إحالة

بضاعة أولئك الأئمة في الحديث مزجاة أو محدودة. فالإمام الشافعي ذكر في كثير من كتبه أنه ليس من أهل القناعة الحديثية وكان يستعين بأحد تلاميذه المحدثين الثقات للاستدلال بالحديث، ويقول الشافعي في كتابه "الأم" "حدثني الثقة" يقصد بذلك تلميذه في بغداد أحمد بن حنبل، ولكن الشافعيّة جمعوا ما استدل به الإمام في "سنن الإمام الشافعي" الذي طبع بمجلدين مع أنه كان يكثر من القول بأنّه ليس من أهل هذا الشأن، ويوصي طلابه على تنبيهه إلى الحديث إذا قال بخلافه، أو استدل بما لا يقوم دليلاً على ما ذهب إليه.

حدث مثل ذلك مع الإمام أبي حنيفة الذي نسب إليه متأخروا والحنفية مسندًا، وخرجوا فقهه- كله- على موافقة السنن[1]. ومثل هذه الأحاديث قد تكون ضعيفة أو أحاديث آحاد، أما القرآن الكريم فهو للعقيدة والشريعة منشيء والسنة شارحة له تدور حوله حيث دار بلاغًا وبيانًا واتباعًا وتطبيقًا، فهي ليست نصًا آخر يدور لوحده أو في فلك آخر غير فلك القرآن

الأحكام المسبقة:

أحب أن أؤكد مرة أخرى على أنَّ القراءة مع وجود آراء أو تصورات أو قناعات أو أحكام مسبقة طريقة غير مسلَّمة مع القرآن الكريم، فالفكرة المسبقة سواء أكانت مقبولة أو فيها نظر لا تعطي للقارئ الحق في أن يسقطها على القرآن الكريم ليحمله على الدلالة عليها، ويكرهه على ذلك، لأنّ القرآن- والحالة هذه- لا يكون منشئًا للرأي أو الموقف أو التصوّر، بانيًا للقناعة

---

2 إن الأئمة الذين فعلوا ذلك كانوا تحت ضغوط مجتمعات مسلمة مختلطة، جديدة، بدأت تظهر فيها مئات المشكلات، والأسئلة الجديدة، وهي عجلة دوارة لا تحتمل التأخير، فما لم يقدموا لتلك الأسئلة إجابات من داخل الشريعة، ولو في إطارها الكليّ والعام فسوف تتعطل مصالح الناس ومعاملاتهم، أو أنهم قد يضطرون إلى اللجوء إلى حلول من خارج الشريعة ، فيشعر الناس أن الشريعة عاجزة عن تنظيم حياتهم . فهم معذورون إن شاء الله بما فعلوا. وما يزال المفتون والمجتهدون يجدون أنفسهم مضطرين للاستجابة للحاجات والأسئلة المستجدة، والوقائع الحادثة لتقديم حلول تعتمد على ملكة الفقيه المجتهد الذي لكثرة ممارسته النظر في الأدلة صار "فقيه النفس" كما يقول ابن السبكي في جمع الجوامع. وصار الفقه أشبه بملكة ونموذج معرفيّ يعتمد على عمومات الأدلة، وكليّات الشريعة ومقاصدها. والله أعلم.

والحكم، بل تابعًا لصاحب تلك الفكرة أو الرأي، ولذلك فإن عليّ القارئ أن يحدد موقعه من النص، وموقع النص منه، ويسائل نفسه كثيرًا حتى يتيقن أنه جاء القرآن ليطرح بين يديه ويستنطقه ويثوره[1]- كما يقول ابن عباس ليصل إلى هدى القرآن في أزمته، أو سؤاله، لا ينطق القرآن بما يريد.

حضارة الكلمة:

يحتاج القارئ للقرآن الكريم أن يدرك أن وحي الله يقوم على الكلمة وحضارة العرب والمسلمين التي أرسى القرآن دعائمها هي –أيضًا- حضارة الكلمة وليست حضارة الصورة. والكلمة يستحيل توثينها –وإن فعل البعض- فالكلمة الموجودة في القرآن تقابل الكلمات الموجودة في الكون " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" وحضارة الكلمة تختلف عن حضارة الصورة في أمور كثيرة، فالفعل المنتمي لحضارة الكلمة له سمات وصفات لابد للقارئ أن يكون على وعي بها منها أنّ الكلمة ناطقة، فهي ركن في خطاب هادف يحمل رسالة لابد أن تفهم هدفها لإقناع المخاطب يقوي وعليه كلها "لحاكميَّة القرآن المجيد وشرائعه".

والخطاب رسالة من مخاطِبٍ- هو الله تعالى- إلى مخاطَبٍ هو الإنسان والإنسان مطالب أن يستجمع كل طاقاته العقليَّة والنفسيَّة، وسائر قوى وعيه ليتمكن من فهم الخطاب؛ لأنَّه خطاب متعال، وصف بأنَّه "قول ثقيل"؛ وهو "مطلق"- أيضًا- والإنسان نسبيّ، وهو هادف يعمل على إعادة بناء أو تشكيل الوعي الإنسانيّ.

وكلمات القرآن الكريم ليست هي كلمات العربيَّة في دلالاتها الساذجة بل هي أسمى منها. وهناك فرق آخر لا يخفى بين استعمال الله –تعالى- لها، واستعمال البشر لنفس الكلمات. فالاستعمال الإلهي يحمل خصائص علم الله الذي أحاط بكل شيء علمًا، فالكلمة القرآنّية ترتقي إلى مستوى المفهوم والاستعمال البشريّ لا يتجاوز في إمكاناته قدرات الإنسان النسبيّ الفكريّة والمعرفيّة.

1

وهذا يدعونا لتأكيد أهمية تفسير القرآن الكريم بالقرآن؛ لأن ألفاظ القرآن الكريم نفسه تعطي ببنائها اللَّفظي معاني جمّة وتجعل الكلمة قادرة على أن تعطي جملة من الفوائد داخل البناء والسياق القرآنيّ، والسباق، وهذا غيض من فيض الفوارق بين الكلمة والصورة.

فالصورة لها تناول آخر وطرائق أخرى والتوجّه النفسيّ للمنتمي للصورة يختلف عن التوجّه النفسي للمنتمي لحضارة الكلمة.

فلسان القرآن الكريم من الصعب جدًا إخضاعه لأحكام الألسنيَّات المعاصرة التي تنطلق من دراسة النصوص وتفكيكها وإعادة كل كلمة إلى جذور فيها مجال كبير للظن وللاجتهاد والخطأ وعدم ملاحظة سائر الجوانب التي أشرنا إليها من فرادة القرآن ووسائل نظم القرآن الكريم وأسلوبه.

أما الألسنيات القديمة مثل دراسات عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة" وابن جني في كتابه "الخصائص" وسيبويه في "الكتاب" والخليل في "العين" وكتب "فقه اللغة" وغيرها. هذه الدراسات ولدت ووجدت في بيئة مسلمة وبتأثير قرآنيّ، ولو أن المسلمين جاوزوا تخلّفهم الذي هم فيه لكانوا تابعوا تلك الدراسات للألسنيَّات القديمة وبنوا عليها، وطوروها وبنوا على قواعدها إضافات عليها وعلى علومها ومناهجها معارف ومناهج أخرى يمكن أن تجعل من اللِّسانيّات الإسلامية والعربيّة لسانيَّات صالحة لخدمة الخطاب القرآنيّ، والوقوف حاجزًا ضد تطفل أولئك الذين لا يؤمنون به، ولا يعرفون عنه الكثير، ولا يستطيعون أن يتذوقوا نظمه وأسلوبه وبلاغته فضلاً عن أن يؤمنوا بإعجازه. ولأغنانا ذلك عن التسول على موائد أولئك الذين أسسوا هذه اللِّسانيات لتفكيك نصوصهم "المقدسة"!!

القرآن الكريم –نفسه– قد هدى الناس إلى نماذج من مناهج قراءته، وأوضح بأنّه إذا قريء القرآن وهناك من هو في حالة الاستماع إليه، فإن للمستمع صفات لابد من توافرها فيه: ﴿**وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (**الأعراف:204**) أمَّا القارئ فهو مطالب أن يقرأ بكل الشروط السابقة، والمستمع مطالب أن ينصت للقرآن بجوارحه –كلّها– لأنّ الخطاب القرآنيّ له طرق متنوّعة تستدرج السامع للاشتباك بقوى وعيه بطرق مختلفة للتأثير فيه، ومخالطة قلبه ببشاشة القرآن. ونستطيع أن نلاحظ ذلك في تحليلنا لواقعة استماع الوليد بن

المغيرة –وهو من هو مكانة في أوساط مشركي مكة. فقد ذهب الوليد إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- موفدًا من قومه لما له من مكانة وعلم ومعرفة بفنون كلام العرب.

:فعن ابن عباس قال: "إن الوليد بن المغيرة، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (**النحل:90**) ، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، وما يقول هذا بشر".

وفي رواية: "وبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه. فقال: يا عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: ولم ؟ قال: أتيت محمداً لتعرض عليه، فما قبل منك. بل قلت: ما يدل على أنك ملت إليه!! قال: قد علمت قريش أنِّي من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك: أنك منكر له، قال: ماذا أقول؟ فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني الخ".

وفي رواية أن الوليد بن المغيرة قال –وقد حضر الموسم أي: موسم الحج-: "ستقدم عليكم وفود العرب من كل جانب، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأياً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً. فقالوا. فأنت فقل، فقال: بل قولوا وأنا أسمع، قالوا: نقول: كاهن. قال: ما هو بزمزمة الكهان، ولا سجعهم. قالوا نقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا وسوسته ولا تخالجه. قالوا: نقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر رجزه وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه. قالوا: نقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بعقدهم ولا نفثهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال: ما نقول من شئ من هذا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول، أن تقولوا: ساحر، يفرق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون للناس، لا يمر بهم أحد إلا حذروه رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم- فأنزل الله في الوليد بن المغيرة: " ذرني ومن خلقت وحيدا " إلى قوله: " سأصليه سقر ".

ونزل في النفر الذين كانوا معه يصنفون القول في رسول الله، وفيما جاء به من عند الله: ﴿..**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ (**الحجر:91**) ، (أي: أصنافاً).

وكانوا يسألون رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- الآيات الحسِّية تهرُّبا من تأثير آيات القرآن المجيد، فمنعهم الله من ذلك، وأكد عليهم تحديه إيّاهم بالقرآن وحده.

وحالة الثلاثة الذين كانوا يسترقون السمع لسماع القرآن "نا أحمد، نا يونس، عن ابن اسحاق قال: فلما جاءهم -رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- بما عرفوا من الحق و عرفوا صدقه فيما حدث، و موقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، فحال الحسد منهم له بينهم وبين أتباعه و تصديقه، فعتوا على الله و تركوا أمره عيانا و لجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: " لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون "، أي اجعلوه لعباً و باطلاً، و اتخذوه هزوءاً، أي " لعلكم تغلبون " تغلبوه بذلك. فإنكم إن وافقتموه و ناصفتموه، غلبكم. فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بالقرآن و هو يصلي يتفرقون عنه و يأبون أن يسمعوا له. و كان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله صلى الله عليه و سلم بعض ما يتلو من القرآن و هو يصلي استتر و استمع دونهم، فرقا منهم. فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم، و لم يستمع. و إن خفض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- صوته، فظن الذين يستمعون أنهم لم يسمعوا من قراءته شيئاً، و سمع هو دونهم، أشاح له ليستمع منه.

نا أحمد، نا يونس، عن ابن اسحاق، قال: حدثني داود بن الحسين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا جهر بالقرآن و هو يصلي، تفرقوا عنه و أبوا أن يستمعوا منه. و كان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بعض ما يتلو و هو يصلي، يسترق السمع دونهم، فرقا منهم. فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم، و لم يستمع. و إن خفض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- صوته، فظن أنهم لم يستمعوا شيئاً من قراءته و سمع من دونهم أشاح له يستمع. فأنزل الله تعالى: " ولا تجهر بصلاتك "، فيتفرقوا عنك، " ولا تخافت بها " فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع، فينتفع به، ﴿ **..وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ (**الإسراء:110**) ".

نا يونس، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: " ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها " قالت: نزلت في الدعاء.

" نا يونس، عن عيسى بن عبد الله التميمي، عن رجل، عن مجاهد، في قول الله تعالى: ﴿.. **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ..﴾ ، قال: أمر رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يجهر بالقرآن بمكة ".

ولإدراك المشركين لهذا التأثير الذي لا يقاوم للقرآن على من يستمع إليه دعوا الناس إلى عدم الاستماع إليه ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ (**فصلت: 41**)، ولذلك نبه الله (سبحانه وتعالى) رسوله بقوله في سورة التوبة ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ (**التوبة: 6**)، فلابد أن يحدث الخطاب القرآني نوعًا من التأثير في القارئ والسامع، فالقرآن أنزل على القلب وليس على الأذن ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (**النحل: 102**)،﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ (**القيامة: 16**) فالقرآن الكريم يتصف بالتحدي فمن أخذه فليأخذه بقوة، ويقوم على الإعجاز بالبلاغة والنظم وجمال الأسلوب وكماله وتأثيره، وقدراته المتنوعة في حمل الناس على التفاعل معه، والعناية بما يعين على استجلاء معانيه من تفسير وعلوم قرآن وسواها ويتميز لسان القرآن في ذلك على لسان العرب أنفسهم، وعلى سائر ألسنة البشر!!

ويأتي السؤال هل استطاعت أمتنا عبر تاريخها باستعمال جميع العلوم والمعارف التي وضعتها إستجلاء معاني القرآن كما ينبغي؟ وهل استطاعت أن تقدم القرآن الكريم لنفسها وللبشرية باعتباره كتاب استخلاف وكتاب عمران حضاريّ؟ لقد اهتمت الأمَّة بقراءآته، وبتجويده، وبزخرفته، واشتمل تراث الأمة على ما يقرب من مليون كتاب مخطوط ومطبوع لكنّ الاهتمام بالجانب الباني للحضارة والعمران بهذا القرآن لم يكن بالقدر المناسب.

فهل يستطيع جيلنا هذا أن ينهض بعبء "دراسات قرآنية" يمكن أن تقدم القرآن المجيد على مستوى هذا العصر وسقفه المعرفيّ– باعتباره كتاب خلافة وعمران، وإنقاذ وخلاص؟! وهل

نستطيع بالقرآن أن نعيد بناء أمتنا وتوحيد صفوفها، وإعادتها إلى مواقع "الخيريَّة والوسطيَّة والشهادة" أمَّة قطبًا تضيء للبشريّة، السبيل، وتهديها إلى التي هي أقوم نرجو ذلك ونتمناه وما ذلك على الله بعزيز!!

أخيرًا هذا المؤتمر يمثل- في موضوعه- أهمية كبيرة، فمنذ فترة طويلة كنت أتابع ما يكتب وما يقال في ملتقيات كثيرة حول القرآن الكريم في دول مختلفة لكن فرادة هذا اللقاء على تواضعه وبساطته اهتمامه بعملية رصد القراءآت الحديثة، التي كثرت، ووضعت —في غالبها- لنفسها أهدافًا حديثة كذلك، ولكنها مختلفة باختلاف الكاتبين في هذا المجال من بين أبناء الأمة وسواهم. وأرجو أن يكون هناك تواصل في العمل للوصول إلى خطة عمل واستراتيجية شاملة لتقديم القرآن لعالم اليوم باعتباره كتاب هداية وحضارة وخلافة وكتابًا كونيًا يستوعب سائر الأزمات الكونيَّة القائمة؟! نسأله —تعالى- أن يهيء لذلك الأسباب. إنَّه سميع مجيب.

كما أرجو أن يكون هذا اللقاء قائمًا على التقوى، ومعينًا على بلوغ مرتبتها فكتاب الله لا يمسُّه إلا المطهَّرون. وإذا كان لي من توصية فإنني أوصي الأخوة أعضاء اللجنة التحضيرية. وأتمنّى عليهم أن يبعثوا بأوراق هذا المؤتمر، ونتائج أعماله إلى جميع كليَّات القرآن في العالم الإسلاميّ والغرب من أجل التواصل والتكامل؛ لأنَّ القرآن الكريم كتاب للعالم كلّه وللبشريّة جمعاء، وما يتعلق به أو يدور حوله يهم الناس كافة. والله ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة أ.د. طه جابر العلواني في ختام
في ندوة الاتجاهات الحديثة في دراسة القرآن الكريم
بيروت 11- 12/ فبراير/ 2006م.

أ.د. طه جابر العلواني

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى من تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين. ثم أما بعد...

ها نحن أخيراً نصل بعد يومين من العمل، وشهور من الإعداد إلى خاتمة هذا الجهد المبارك، الذي نتمنى أن نجعل منها فاتحة لجهود جديدة ومحاولة ارتياد لآفاق عديدة من آفاق هذا الكتاب العظيم الذي لا تنقضي عجائبه.

إنَّنا نقرأ في هذا الكتاب وفي قراءآت الناس فيه وحوله ونحن نعيش في عصرنا هذا أزمة طاحنة نحاول أن نلتمس فيه سبيلاً للخروج من أزماتنا تلك ووضع الأمة على سبيل الهدى والفلاح من جديد، باعتباره مصدر التكوين الأول لأمتنا، وباعتباره الكتاب الكونيَّ الوحيد الموجود بين أيدي البشريَّة، كما أنَّه الكتاب الوحيد الذي يملك القدرة على الإخراج من أزمات صارت كونيَّة.

نقرؤه وأمتنا التي تكونت به في حالة تفكُّك وتشرذم وفرقة ملتمسين استخلاص منهج لإعادة البناء، قائم على منهج التكوين فنحن لا نقرؤه بمنطق سكونيٍّ ماضويٍّ، ولا بمنطق علمانيٍّ حداثيٍّ أو ما بعد حداثيٍّ، بل بمنطق قائم على محاولات الكشف للسنن والقوانين التي تحكم حركات التاريخ والمجتمعات والأمم نحو الغايات المرسومة إلهيًّا في جدل لا ينقطع ولا يتوقف حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لنتمكن من تلمُّس سبيلنا لإعادة البناء.

قبل حوالي قرنين من الزمان كان الناس إذا ألم بهم أمرٌ يلجأون إلى قراءة صحيح البخاري في المساجد التماسًا للبركة ولكشف البلاء. واليوم نريد أن نقرأ القرآن العظيم وهو أعظم وأبرك وأشرف من أي كتاب.

ولكن كيف نقرؤه؟ وكيف يُقرأ؟، وكيف نستنبط منه الحلول للخروج من تلك الأزمات؟ إن من أمتنا من يقرأه قراءة تراثية، وبعضنا يقرؤه قراءة حديثة، ولكن الجميع مطبقون على أن هذا القرآن مخرج من الفتن وأنَّه يهدي للتي هي أقوم.

فالحداثيّ وغيره يستطيع أن يستورد الحلول كيفما شاء من غيره، ولكن لجوئه لاستخراج حلول من القرآن الكريم دليل على إيمانه به، وثقته في قدرته على إخراج الأمة من تلك الأزمة، ولا أجدني مستريحًا عندما أرى الاختلافات تشتد بين القارئين للقرآن. أو أنهم ينقسمون إلى الحداثيّ والأصوليّ في القراءة. بالرغم من وجود اختلافات لا تنكر في الرؤية أو في الوسائل ولكن الجمع بين القراءتين ممكن، وليس بمستحيل ما خلصت النيّات.

إنَّني قرأت هذه الآية ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" ﴾ (الكهف: 28)، استوقفتني فالمولى جل شأنه يطلب من رسوله ﷺ هذه المصابرة والمجاهدة للبقاء معهم، وعدم مفارقتهم حتى إذا اختلفت معهم؛ فلو تطابقت الرؤى ما جعل الناس في تدافع. والأمر بالمصابرة يدل على أننا –جميعًا– نختلف في طبائعنا، وفي قدراتنا، وفي توجهاتنا في بعض الاحيان، فيجب أن نستمر على المصابرة ويعذر بعضنا بعضًا في حالة الاختلاف في الرأي، فالحداثيُّ قد يتَّهم الأصوليَّ بالتخلّف، والأصوليُّ قد يتَّهم الحداثيّ بالخروج عن الملّة. هذه الاتهامات لا تخدم العلم والتعلّم، بل توجد أجواءاً لتؤدي إلى فساد الرؤية وضياع جهود الأمة، واجتهاداتها.

ولذلك فإن ما نصبو إليه هو إعادة تعليم أمتنا القراءة الميّسرة: القراءة التي تتسم بالحيويّة والمرونة، القراءة التي نتمكن بها من إعادة حالة الحيويَّة والفاعليّة، والتحلّي بالإرادة والعزيمة الصادقة لإحياء عوامل الدفع الحضاريّ في الأمَّة، بل وإيجاد الطاقة القادرة على توليد هذه

العوامل في إطار تتحدد العلاقات فيه بوضوح بين المتغيرات والثوابت، وذلك في نظري المتواضع هو "حق التلاوة" الذي ذكره القرآن المجيد.

إن القراءة التي نصبو إليها هي القراءة التي يمكن أن تتسم وتوصف بأنها "تلاوة حق التلاوة" "تلاوة أولئك الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، فينطلقون وهم على ربهم يتوكلون. في تصحيح مسار الأنفس، وارتياد الآفاق.

في بحث لي عن الردة استخدمت في رؤيتي كتاب الله وسنة رسوله وقد قبل من قبل ورفض من رفض، ومن خلال بحثي وجدت أن حوالي خمسين إمامًا اتهموا بالردة مثل الآمدي، وفخر الدين الرازي الذي أوصى عندما يموت أن يدفن بليل وأن لا يعلم أحد موقع قبره مخافة أن ينبش. ومنهم من هرب، ومن سجن وعذبّ حتى أن الإمام الشافعي وهو من هو في إمامته وعلمه جيء به من اليمن إلى بغداد مكبلاً بالأصفاد ليقف بين يدي الرشيد بتهمة التحريض على العباسيِّين، وأمثال هؤلاء كثير.

في تاريخنا ثغرات عديدة، وأعجب لقوم لا يحتملون القول المخالف، والله سبحانه وتعالى نقل عن اليهود والنصارى مخالفتهم له -جل شأنه- وتجرئهم عليه بقولهم ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (**المائدة: 64**)، وقال عن تطاول النصارى ﴿**لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (**المائدة: 73**) فكان القرآن يروي عنهم ما يذكرون، ويكر عليهم بالرد العقلاني المعرفي الاستقرائي، وذلك الذي ينبغي أن يكون سمة للحوار بيننا باستمرار حتى لا يستمر أفراد الأمة في صراع يقاتل بعضهم بعضًا، وتصادر على حركات الإصلاح حركات لا تريد إلا الإصلاح كذلك. ونحتاج أن نتعلم احترام رأي الآخر ونحاول تفهمه، ومن خلال آداب البحث والحوار

المناظرة نستطيع أن نصل إلى ما هو الأصوب أو الأولى من الآراء. مستدل يقرر دليلاً، ومعترض يقدم اعتراضًا يهدم الدليل الذي أتى به المستدل؟ ليبلغ الاثنان- معًا- مستوى القياس الدقيق.

إن الإمام الشافعيّ -رضي الله عنه- في كتابه "الأم" كان يفترض وجود المعترض فيقول: لو أن قائلًا اعترض على هذا الحكم -فجوابه كذا وكذا. إنّ في مباحث القياس الأصوليّ لابد من وجود طرفين لأن ذلك هو الذي يظهر الأوجه المختلفة للمسألة.

لذلك فإن المطلوب منّا باعتبارنا باحثين أفرادًا وجماعات أن نجتهد في معرفة سنن هذا الكتاب وقوانينه ونظمه لمحاولة استخلاص القوانين التي تحكم حركات التاريخ، ونهوض الأمم لنتمكن من الكشف عن منهج إحيائها لتتبوأ موقع الشاهد الشاغر منذ غابت عن شهودها العمرانيّ في إعادة بناء الأمة وإعادة بعثها.

إن ما نصبو إليه في هذا اللقاء، والجهود التي أرجو أن تستمر وأن تنتقل إلى طلابنا وأبنائنا هو إعادة تعليم أمتنا القراءة الميسرة "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ" قراءة تتسم بالحيويَّة والمرونة، نستطيع بها أن نعيد الحيويّة والفاعليّة لأمة لم يعد شيء من الأشياء قادرًا على إعادة حيويَّتها وتجديدها إلا كتاب الله -جل شأنه- فهو النبي المقيم، وسنة رسوله —صلى الله عليه وآله وسلم- التي لا تنفك عنه.

ويجب أن نستثمر الأحداث الأخيرة في الاستفادة من طاقة الأمة، فحادثة الرسوم المسيئة لشخص النبي الكريم ﷺ والتي نشرت في صحف دنماركية وغيرها حركت جميع فئات الأمة، ولا شك عندي أن كثيرًا من هؤلاء المتظاهرين غير ملتزمين بسائر الفروض والشعائر الإسلاميَّة، ولكن حينما يقال: "مست شخصيَّة رسول الله ﷺ، أو مُسَّ القرآن الكريم"، فإن هذا الجسم الهامد الميت، تنطلق فيه حيويَّة هائلة لا نستطيع أن نوجدها بأيّ محرك آخر، ولذلك فإنَّ علينا أن نحسن تقديم القرآن لهذه الأمة لتقديمه بشكل يؤدي إلى استبدال الخلايا الميتة، ويعيد للجسم الحيويّة، ويردُّ للإنسان المسلم الإرادة والعزيمة الصادقة لإحياء عوامل الدفع الحضاريّ فيها، ويعرفها بشخصيَّة الرسول الكريم- صلى الله عليه وآله وسلم- لتجعل منه أسوتها وقدوتها ومثلها الأعلى في كل ما تأخذ وتدع.

أنا لا أستطيع أن أفاضل بين أيّ لسانيّ من الغربييّن وبين الجرجانيّ وغيره، وأحسم المعركة بمجرد المفاضلة ولكن تحسم المعركة عندما نستعين بهذا الكتاب المجيد للعثور على المفاتيح المحركة لضمائر أمتنا لنعيدها لخط المسيرة التاريخيَّة لاستعادة فاعليَّتها. نحن محتاجون لقراءآت تعيد إنتاج الطاقة الإنسانيَّة وتوليدها في علاقات تتحدد فيها بوضوح المتغيرات والثوابت. ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (**البقرة:121**) "حق تلاوته" هي التلاوة التي تعمل على إعادة الحيويَّة وتجديد الخلايا الميتة وإعادة بناء الإنسان المسلم الحضاري.

نحن نقرأ ونحن مؤقنون بأننا ننتمي إلى "نسق ثقافيّ" و"إطار حضاريّ" و"كيان اجتماعيّ" قرآنيّ إسلاميّ صاغ عقولنا وكوّن نفوسنا، وبنى ثقافتنا بشريعة غلاّبة استطاعت أن تفرض نفسها على أبناء هذا الكيان، واستمرت في فرض نفسها حتى بعد أن غابت شمسها؛ لأنَّها الشريعة التي عرفت كيف تحول الحرام إلى "عيب" في الإطار الثقافيّ، والواجبَ الشرعيّ إلى مطلوب أمَّتي. وكثيرًا ما يجد الإنسان منّا نفسه يقوم بشيء، أو يلاحظ تصرُّفًا فيستحسن ويستقبح دون أن يلتفت إلى المصدر، ولكنَّه عند البحث يجد المصدر في ذلك التشريع العظيم الذي يربط بين الأصل والوحي والعقل والنفس ليجعل المطلوب الشرعيّ معروفًا، والمرفوض —شرعًا- منكرًا.

وصار لدينا منكر ومعروف وتحولت هذه المنظومة الشرعيَّة في جذورها إلى ثقافة راسخة تبنَّاها المسلمون وغير المسلمين الذين يعيشون في أوطاننا، وأصبحت لديهم بعض التقاليد –التي أتت من التصاقهم بهذه الثقافة. فكلنا يستحسن ويستقبح ولكن يغفل عن النموذج الكامن في عقله، وهو النموذج الذي يجعله ينفر من هذا ويقبل ذاك، وهذا النموذج ما منحه تلك القوّة والمتانة سوى القرآن الكريم.

إننا في دراستنا كثيرًا ما نغفل عن أن آبائنا وأسلافنا قد خاضوا في كل ما خاضوا فيه، ولكن في إطار سيادة "المرجعية الإسلامية". ونحن نخوض في كل ما نخوض فيه في ظل سيادة مرجعيَّة مغايرة، لها أصولها وجذورها وسيرورتها وصيرورتها فليس من العدل أن نحاكم تراثنا إلى هذه المرجعيَّة، ولن يخدم ذلك الموضوعيَّة ولا العلميَّة التي نبتغي لأسباب كثيرة.

إننا نراجع تراثنا ونحن في حالة استضعاف وهزيمة حضاريَّة واستعلاء خارجيّ، تهيمن على نفوسنا مجموعات من المشاعر السلبيَّة التي كثيرًا ما تولد- عندنا- شعورًا بالدونيَّة يشكل ضاغطًا على محاولاتنا لتحقيق الاستقامة العلمية والموضوعيّة مهما حاولنا.

ولذلك فنحن أحوج ما نكون إلى دراسات متعمقة جادة فاحصة في عمليات تكوين الأنساق الثقافية وتداخلها وتقابلها. وكذلك فيما يتعلق بالأديان وتداخلها وتقابلها وكيف يتم كل منهما.

هناك ما تسميه د. منى أبو الفضل- عافاها الله- بـ "جنيولوجيا النخب" أو "أنساب الأفكار" والأشخاص والثقافات. وجنيولوجيا النخب مدخل يستطيع أن يبيِّن الخاص والمشترك بين الثقافات والإنساق، وبه يستطيع المثقف أن يحافظ ويوازن بين الخاص والمشترك بين الثقافات والأنساق الثقافية.

إن الحضارة المعاصرة حاولت أن تحقق لنفسها إعجازًا يفرض على الآخر بوفرة المعلومات وكثرتها، وإشاعتها، وجعل الآخرين عاجزين مشلولين أمام كثرتها وهيمنتها وتشعبها، ويسر وسهولة الوصول إليها، والقدرة على نسبة كل إنجاز لها.

ولذلك فلابد من التدرع بالقدرة على القراءآت المعرفيَّة والمنهجيَّة التي تكشف عن الغايات والمقاصد والنماذج والمناهج، وتمكن من معرفة مناطق التقابل والتداخل، خاصة حين يكون التداخل المطلوب والتقابل بين نسقين مختلفين أحدهما مفتوح والآخر مغلق واقف عند مضائق النهايات سواء أكانت نهايات فلسفة العلوم الطبيعيّة، أو نهاية التاريخ، أو نهاية الأنسان.

إن ثقافة الهيمنة لم تعط لأحد فرصة يحاسب فيها كتابهم عندما يذهبون إلى أفكار وشطحات قد تؤذي أو تضر بمستقبل البشريَّة، ومع ذلك فنحن في حاجة ماسة للحوار معهم، والتعامل مع ما يطرحون للوقوف على أرضية مشتركة، وكشف الغايات والمقاصد، ولتمكن من معرفة مناطق التداخل والتقابل بين نسقين إسلامي مفتوح، وآخر مغلق يصر على أن لا ترى البشرية إلا ما يرى.

لقد اتفقت كلمة الأمة منذ عهد رسول الله ﷺعلى أنَّ القرآن يفسر بعضه بعضًا، وعلى أن أفضل تفسير للقرآن هو ذلك النوع من التفسير، ولكنَّنا لا نجد لهذا الاتفاق أثرًا يذكر في

تفاسيرنا– ولكي أبين نموذجًا واحدًا فقد ذكرت قضية "المحكم والمتشابه" في هذا اللقاء كثيرًا، وفي منهج تفسير القرآن بالقرآن أستطيع أن أقول: بأن سائر عمليات التعارض والتعادل والتمانع بين النصوص إنما هي ناجمة عن أفهام المجتهدين أو المفسرين، ولا وجود لها في الخطاب القرآني ذاته، والإحكام والتشابه ليست بدعًا من الأمور المشار إليها فآية سورة هود الأولى دلت على إحكام القرآن كله.

﴿**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ (**هود:1**) وفي سورة الزمر: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (**الزمر:23**) ثم تأتي آية التفضيل بين المحكم والمتشابه في سورة آل عمران: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾ (**آل عمران:7**) وهذه السورة ذكرت التوراه والإنجيل واستعرضت تاريخ النصرانيَّة، والانحرافات التي أصابتها، ومجادلات النصارى مع أهل الكتاب. وهذا يدل على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا يستغلون الآيات التي تشتمل على ما يشبه ما ورد في كتبهم عن خلق آدم والجنة والنار وما إليها ليقولوا للمسلمين: انظروا إنَّ رسولكم لم يأت بجديد، بل نقل كل ما جاء به عن كتبنا؛ يحاولون بذلك إضلالهم باستغلال ذلك التشابه، ولذلك جاء في الآية الكريمة ﴿.. **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ (**آل عمران:8**) أي: ما جاء في القرآن، وما جاء في الكتب السابقة.

ولذلك جاءت هذه الآية في سورة آل عمران —التي خصصت لمناقشة النصارى فيقول لهؤلاء ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾

(**آل عمران:7**) والفتنة هنا صرف الناس عن دينهم، وفتنهم عنه بتلك الإفتراءآت، أي: دعواهم أن محمدًا —صلى الله عليه وآله وسلم- نقل ما جاء به عمن سبقه من الرسل، وكتابه يشبه كتب أولئك السابقين -كما زعموا- ومع ذلك فقد بقي تراثنا الأصوليّ وتراثنا في علوم القرآن يتحدث عن المتشابه بأنّه الغامض والمبهم وما استأثر الله بعلمه، وكيف يخاطب الله الناس بالغامض، وكيف يهتدون ويؤمنون بالمبهم؟ وحينما تجاوزنا تفسير القرآن بالقرآن بطرق أخرى فشلنا فشلاً ذريعًا في استجلاء معاني القرآن.

ولقد بلغ من تشبُّث بعض المفسرين بالإسرائيليّات ما ذكروه عن أبي سيدنا إبراهيم فالقرآن صرح بأن اسم أبيه "آزر"، فحورها بعض المفسرين وقالوا: أن اسمه تارح بالرغم من صراحة التسمية في القرآن، وفي تفسير الطبري نجد مفارقة عجيبة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ حيث ذكر أن المراد بها "نبوخذ" لأنه هدم بيت المقدس فكيف يعقل أن يذهب مثله إلى هذا والآيات تتحدث عن المساجد لا عن معبد اليهود؟.

نحن بحاجة إلى أن نتصل بالقرآن الكريم ونذهب إليه لنتلوه حق تلاوته ولا نتهيب من ذلك، فتدبُّره أيسر من الغوص في التفاسير وكتب القواعد والأصول.

دعونا نتصل بالقرآن الكريم اتصال المفتقر إليه ولا نسقط ثقافات الآخرين التي تعلمناها عليه، وندرك أن هذا كلام الله ووحيه، والقول الثقيل. ولكنّه قد يسره الله للذكر فهل من مدّكر؟؟!!.

أرجو أن يكون لقائنا هذا لقؤنا مرحومًا، وأسأله الله —تعالى- أن يؤلف بين قلوبنا ويعيننا على خدمة القرآن ودراساته، ولا ننتظر أن يكتشف الغير لنا إعجاز القرآن مثلما اكتشف الأغيار البترول الذي بقينا نسير عليه قروناً ولم نكتشفه فاكتشفه الغربيوّن عندما احتلوا بلادنا. نحتاج إلى أن يستمر التواصل وتبادل المعلومات بيننا وننقل بعض ما ذكر إلى طلابنا ومراكز البحوث الهامة. وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته